إلى الأستاذ زكي علي
علامة تقدير من تلميذه إلى
أستاذه
لطفي عبد الوهاب
يناير ١٩٥٦.

لطفي عبد الوهاب يحيى

دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن
مدرس التاريخ القديم بجامعة الاسكندرية

أثر العامل الجغرافي في تاريخ أثينا

مطبعة دار نشر الثقافة

٥ شارع الراضي بمحرم بك بالاسكندرية

١٩٥٦

اقتصار الكلام على أثينا فى هذا البحث لايعنى أنها تعرضت لعوامل جغرافية غير تلك التى خضعت لها بــلاد اليونان بوجه عام أو أنها اختلفت عنها فى هذا المجـال اختلافا كبيرا أو جوهريا ، فقـد كانت للعـوامل الجغرافية التى سادت العالم اليونانى فى مجموعه آثار مشتركة ظهرت فى صـــور واتجاهات متجانسة من الحياة العامة عند سكان هذه المناطق وكان من نتائجها ظهور جانب كبير من التراث السياسى والحضارى الذى خلفه اليونان والذى يتصف بيونانيته قبـل أن ينتمى إلى هذه المنطقة أو تلك أو هذه المدينة أو تلك من مناطق العالم اليونانى ومدنه . فالمناخ الذى يميل إلى الحرارة كان سببا فى القذف بالحياة الاجتماعية عند اليونان إلى الأماكن المكشوفة ، فـكانت السوق هى المكان الذى اتخـــذوه لاجتماعاتهم السياسية ، وكان المسرح المكشوف هو المكان الذى خلدوا فيه مخلفاتهم الأدبية وكانت الألعاب الرياضية أو الأولمبية التى تمارس بالضرورة فى أماكن خلوية تكون جانبا هاما من اجتماعاتهم الدولية التى يعقدونها فى أثينا أو فى كورنثه أو فى غيرهما من بلاد اليونان لمناسبات دينيـــة أو سياسية . كـذلك كان إجـداب الـتربة وإقفار البلاد بوجه عام وراء الهجرات التى تمت على نطـــاق واسع والتى دفعت العناصر اليونانية المختلفة من دوريين وآخيين وأيونيين منـذ بداية القرن الثـانى عشر ق م . ، سعيا وراء الرزق ، إلى الاستيطـان على السـاحل الغربى لآسيا الصغرى وفى الأماكن المحـدقة بمنطقـة الهلسبونت ، كما كان سببا فى اتجاه اليونان بوجه عام إلى ركـوب البحر كتجار أو ، إذا تعذر ذلك ، كقراصنة فـكلتا الحرفتين كانت معترفا بها كوسيلة لكسب العيش، وإلى العمل كجند مرتزقة سواء كان ذلك عند بنى جلدتهم من اليونان أو عند المصريين والفرس وباقى الممالك والإمارات الشرقية ، وأخيرا فقـد كانت الحواجز الجبلية التى تخـترق بـلاد اليونان طـــولا وعرضا فتقسمها إلى مناطق صغيرة فى شبه عزلة بعضها عن البعض الآخر ، أحد الأسباب التى جعلت النظام السياسى السائد فى بلاد اليونان هو نظـام الدويلة الصغيرة التى لا تزيد فى أغلب الأحوال عن مدينة واحدة ومساحة محـدودة

من الضواحى أو الاراضى التى تحيط بها وتتبعها .

اشتركت أثينا مع باقى بلاد اليونان فى هذه الظروف الجغرافية وفى الآثار التاريخية والحضارية التى نجمت عنها ، ولكنها ، فى مقام التفاصيل التى تنطوى تحت هـــذه الظروف العامة ، اختلفت ، بل انفردت فى كثير من الاحيان ، عن غيرهامن مناطق العالم اليونانى بالشكل الذى ابتعد بها فى أكثر من جانب من جوانب تاريخها وحضارتها عن أن تكون نسخة مكررة من أية بلد يونانية أخرى . هذه التفاصيل أو العوامل الجغرافية الخاصة والآثار التى ترتبت عليها هى التى سأحاول دراستها ، وفى هذا الصدد سأتكلم عن الآثار الحضارية بوجه عام ولكنى سأفصل القول بوجه خاص عن الناحية السياسية ، داخلية كانت أو خارجية ، وعن الأثر الاقتصادى الذى وجه ، إلى حـــد كبير ، الجانب السياسى بشقية . وفى هذه الدراسة لن ألتزم ترتيبا أو تقسيما جغرافيا معينا ، وإنما سأجمع أو أفرق بين الظروف أو العوامل الجغرافية بقدر ما كان لها من أثر مشترك أو مستقل على ناحية أو أخرى من نواحى التاريخ الأثينى ، واعتمادا على هذا سأتحدث فى المقام الأول عن الظروف التى ارتبطت بالمحصول الزراعى ، وبخاصة من الحبوب ، فى أتيكا ، ثم أتلو ذلك بالحديث عن نصيب هذه المنطقة من الثروة المعدنية والحجرية ، وفى النهاية سيكون الكلام عن الموقع الجغرافى والتضاريس بوجه عام . بقيت نقطة أود الإشارة إليها ـ رغم وضوحها ـ لصالح الدارس المبتدىء ، وهى أنى فى كلامى عن أثينا ، ستكون إشارتى فى أغلب الأحوال إلى أتيكا ، وهى المنطقة التى تنتظم ، إلى جانب أثينا ، الأراضى أو الضواحى التى تحيط بها وتتخذها مركزا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا .

١

— المناخ والتربة
— أثر ذلك فى السياسة الخارجية
— أثرها فى الناحية الداخلية

إذا كانت بلاد اليونان ، كباقى مناطق البحر الأبيض ، تميل إلى الجفاف ، فان أتيكا تعتبر أكثر مناطق بلاد اليونان جفافا على الاطلاق ، إذ لا يزيد منسوب المطر فيها عن ٤٠ سنتيمترا فى العام (١) ، ثم هى ، إلى جانب جفافها ، على جانب كبير من الوعورة فى سطحها ، فمساحة المناطق الجبلية فيها تبلغ ٦٣٫٧ ٪ من مساحة أراضيها مجتمعة (٢) ، الأمر الذى حدا بأفلاطون أن يسميها بالهيكل العظمى « الذى تبرز ضلوعه على شكل نتوءات كبيرة من الحجر »(٣) أما الأماكن التى تصلح نسبيا للزراعة فتنحصر فى المناطق السهلية المتواضعة الاتساع التى تحوطها الجبال وهى سهل ثريا Thria الذى يقع على الساحل بالقرب من إليوسيس ومساحته ٩٤ كم مربعا وسهل كفسوس Kephissos الذى تقع فيه أثينا ومساحته ١٣٠ كم وسهل الأراضى الوسطى Mesogaea الذى يقع بين جبال هيمتس Hymettos وجبال بنتلكوس Pentelikos ومساحته ٧٢ كم ثم سهل ماراثون Marathon فى شرق شبه الجزيرة وهو أصغر السهول الأربعة إذ لا تزيد مساحته عن ١٥ كم (٤) . على أن هذه السهول على صغر مساحتها ، ليست على جانب كبير من الخصوبة ، حقيقة إن لها انتاجا لا بأس به من الكروم والزيتون ، وهى الأنواع التى تصلح للزراعة فى المناطق الجافة القليلة الخصوبة ، مما جعل بعض الكتاب القدماء يصفون أتيكا بأنها من الناحية الزراعية تضارع أى إقليم آخر (٥) ، ولكن تربتها من النوع الفقير فى إنتاجه للحبوب فالمحصول كان لا يسد ربع أو ثلث حاجة السكان ، وأكثر من هذا فقد كان أغلبه من الشعير ، أما القمح فكانت نسبته لا تزيد عن ٩٫٢٥ ٪ من المحصول

الكلى (٦) وقد سجل القدماء هذه الحقيقة فى أكثر من موضع وأكثر من مناسبة فثوكيديديس وسترابون يصفان أتيكا بأنها أقل خصوبة من لاكونيا ، وديموسثنيز يتحدث ، على لسان أحد عملائه ، عن فاينيوس ، أحد أغنياء أثينا ، ومع ذلك فالمساحة الصالحة للزراعة من أراضيه تقل عن ربع المساحة التى يملكها، كما تسجل لنا إحدى الوثائق التى عثر عليها فى إليوسيس أن محصول أتيكا من الحبوب لم يزد فى ٣٢٩ ق. م. عن ٤٠٢,٥١٢ مديمنوس بينما كان يلزم سكان أتيكا نحو مليون ونصف مليون مديمنوس (٧) .

هذه هى بوجه عام إمكانيات أتيكا الزراعية ، وبخاصة فيما يتعلق بانتاج الحبوب ، وهى التى كونت عند اليونان ، كما كانت ولا تزال تكون عند باقى مناطق البحر الأبيض ، الجانب الرئيسى من غذاء السكان . وقد كان لهذا أثره الواضح فى سياسة أثينا الخارجية التى سارت منذ البداية فى تيار واضح يرمى قبل كل شىء إلى أن يضمن لها ما يسد حاجة أبنائها من الخبز ، وهكذا بدأت تنظر إلى المناطق المحيطة بالبحر الأسود الغنية بمحصولها من الحبوب ، وقد ظهر هذا التيار فى بادىء الأمر فى شكل استيراد للحبوب من هذه المناطق،ولكن أمراً آخر لم يلبث أن صبغ هذا الاتجاه بصبغة جديدة ، فأثينا لم تكن الدولة الوحيدة التى اتجه نشاطها لسبب أو لآخر إلى هذه البقعة ، بل كانت هناك أرجوس وكورنثه وكانت هناك ،إلى جانب هاتين، متليني Mytilene التى امتد نفوذها وممتلكاتها إلى شواطىء مضيق الهلسبونت. وعلى هذا فليس هناك ما يضمن للسفن الأثينية المحملة بالقمح أن تقطع طريقها إلى أثينا فى دعة وأمن إذا عن لأرجوس أو كورنثه أو متليني أن تضيق عليها الخناق فى سبيل تنافس تجارى أو غير تجارى . وهكذا تتجه أثينا إلى تحصين ما أصبحت تعتبره طريقها الحيوى بمد نفوذها السياسى إلى هذه المناطق .

بدأ ذلك فى أواخر القرن السابع حين استولت أثينا على حصن سيجيون Sigeon الواقع على الشاطىء الآسيوى فى مدخل مضيق الهلسبونت والذى كان

يتبع إذ ذاك جزيرة لسبوس ، واعتمدت فى ذلك على صداقتها لميليتوس ، مؤسسة أكثر المستعمرات اليونانية فى هذه المنطقة ، وإذا كانت سيجيون قد خرجت من نفوذ اثينا فى الفترة التى تلت ذلك بسبب عداء ميتليني التى قابلت الحركة الأثينية ببناء حصن أخيليون Achilleon فسدت الطريق أمام الأثينيين وبسبب انشغال أثينا إذ ذاك بأمورها الداخلية التى ارتبكت إلى حد كبير فى أواخر عهد الأرستقراطية، فإن أهم ما حققه الأثينيون فى الميدان الخارجى ، بعد أن دعم بيزستراتوس حكمه على أنقاض الحكم الأرستقراطى ،هو أن يستولوا مرة أخرى على سيجيون فى ٥٣٢ – ٥٣١ ق.م. ، وقد أبدى بيزستراتوس مقدار اهتمامه بهذه الخطوة بأن أرسل أحد أبنائه ليكون حاكما على الحصن، كما زاد من تدعيمه لموقف أثينا فى هذه المنطقة بأن أرسل ملتياديس ، أحد زعماء حزب السهل وعم ملتياديس الذى سيقود القوات الأثينية فى أثناء الحروب الفارسية ، ليؤسس مستعمرة أثينية فى سستوس Sestos على الشاطىء الأوربى المقابل لسيجيون وليستولى على شبه جزيرة الخرسونيزوس ثم يحصنها ضد الغزو من الشمال ببناء حائط يمتد من كارديا إلى باكتى Paktye (٨).

ولم يكن هذا التوسع الذى دعمه بيزستراتوس إلا بداية الاتجاه نحو الشرق من جانب أثينا ، هذا الاتجاه الذى سيشكل سياستها الخارجية إلى حد كبير فى القرن الخامس وإلى حد أكبر فى القرن الرابع ق.م. فهيرودوت يتكلم عن عشرين مركبا وافق مجلس العامة الأثينى Ekklesia على إرسالها إلى شرق بحر إيجه لمعاونة المدن الأيونيه فى ثورتها ضد الملك الفارسى (٩). وقد يكون إرسال هذه المعونة الحربية إلى الشرق ، كما يميل هيرودوت إلى الاعتقاد، راجعا إلى اقتناع الأثينيين بوجهة نظر أريستاجوراس الذى ذكرهم بأن ميليتوس ، التى تزعمت الثورة ، قامت فى البداية على أكتاف المهاجرين من الأثينيين وأنها ، تبعا لذلك ، حقا على أثينا ، وقد يكون راجعــا كذلك إلى حالة التوتر التى كانت قد بدأت تسود بين الأثينيين والفرس ،

ولكنه على أى الحالين اتجاه إلى الشرق يبين مدى حساسية السياسة الخارجية الأثينية فيما يتعلق بهذه المنطقة التى تشرف على الطريق الحيوى للأثينيين .

فاذا توغلنا فى القرن الخامس حتى نصل إلى الحروب البلوبونيزية وجدنا عدم الاكتفاء الذاتى من ناحية المحصول الزراعى، الذى دفع بأثينا دفعا إلى طريق الشرق، يظهر بوضوح فى الصراع بين عملاقى العالم الهلينى إذ ذاك، فاسبرطة التى كانت قد عقدت أمرها على زحزحة أثينا من زعامتها بأية وسيلة ستنتبه إلى نقطة الضعف التى تشكو منها أثينا وتستغلها بأقصى ما تستطيع بذله من جهد ومهارة ، وهكذا ستكون الحملات الاسبرطية على أثينا ، وبخاصة فى البداية ،بجرد غارات ترمى قبل كل شىء إلى تدمير محصول أتيكا حتى يصبح الأثينيون تحت رحمة اسبرطة ، يظهر هذا جليا فى حملة ٤٣١ التى اختار أرخيدامس وقتها حين كان محصول الحبوب يشارف النضوج والتى بدأ فيها بتخريب حقول إليوسيس وثريا [١٠] كما يظهر فى حملة ٤٢٧ التى تمتاز، كما يروى لنا ثوكيديديس ، بكثير من التدمير ، والتى اتخذ القائد الاسبرطى فى أثنائها إقليم أخارناى Acharnae إحدى مناطق أتيكا، مقرا لقيادته يوجه منه حملات التخريب التى يصفها الشاعر أرستوفانيس ، بعد أن دفعته فظاعة التدمير إلى مهاجمة مناصرى الاستمرار فى الحرب ، حين يتكلم عن سكان أخارنيا وقد «نضب محصولهم من الحبوب وجفت أشجارهم . . . » [١١] وأخيرا فاذا كانت اسبرطة قد بدأت حملاتها بتخريب محصولات أتيكا فانها قد سددت الضربة القاضية لغريمتها فى ايجوس بوتامى التى تشرف على مدخل الهلسبونت وتتحكم ، تبعاً لذلك، فى بداية الطريق الحيوى الأثينى .

على أن اسبرطة لم تكن فيما قامت به إلا أول من تنبه لنقطة الضعف الأثينية ونجح فى استغلالها ، وسيشهد القرن الرابع سلسلة متصلة من مناورات أعداء أثينا الذين جعلوا من مضيق الهلسبونت وباقى الشواطىء الإيجية المطلة على طريق الحبوب إلى أثينا مجالا لمناوراتهم ، ففى حرب الحلفاء التى قامت بين أثينا وأعضاء حلفها الثانى

فى الفترة مابين ٣٥٧ و ٣٥٥ والتى اشترك فى إثارتها إلى حدما موسولس حاكم كاريا من قبل الامبراطور الفارسى من ناحية وتزعمتها بيزانتيوم من ناحية أخرى بينما استغلها فيليب لمضايقة أثينا من جهة ثالثة، نجد بيزانتيوم تعمد إلى مهاجمة قوافل الحبوب الأثينية وتتحالف فى سبيل ذلك مع سلبريا وخلقدون(١٢) . كذلك ستكون منطقة الخرسونيزوس المطلة على طريق هذه القوافل ميدانا للمد والجزر السياسى بين أثينا وفيليب بعد أن يموت كوتيس ملك تراقيا ويقتسم ملكه كل من كرسبلبتيس وأمادوكس وبريساديس ، وسيبلغ من ازدحام هذه المنطقة بالنشاط السياسى فى أثناء هذه الفترة (الأمر الذى يظهر مقدار اهتمام الأثينيين بها) أن ترسل أثينا اليها بثلاثة من أظهر قوادها فى القرن الرابع وهم خاريس وخابرياس وخاريديموس وأن يحاكم بسببها أحد هؤلاء ، خاريديموس ، لخطأ فى تكتيكه السياسى ويحكم عليه بالاعدام ، وحين ينجو من ذلك بأعجوبة يواجه غرامة مالية فادحة ، وأن يضطر خاريس فى نهاية نشاطه الحربى فيها سنة ٣٥٢ أن يذبح جانبا من سكانها ويلزل بالجانب الآخر إلى مرتبة الرقيق قبل أن يدعم المسيطرة الأثينية فيها (١٣) .

على أن فيليب ، رغم مجيئه متأخرا من الناحية الزمنية ، يعتبر بحق أمهر من أدرك نقطة الضعف الأثينية وعرف كيف يستغلها بالشكل الذى مكنه فى النهاية من القضاء ليس على نفوذ أثينا فى الخارج فحسب ، بل على استقلالها كذلك ، فمناورات فيليب ومناوشاته مع أثينا سلسلة من منظمة من تضييق الخناق على النفوذ الأثينى فى سواحل بحرايجه المطلة على طريق الحبوب الآتية من شواطىء البحر الأسود ففى ٣٥٨ يبدأ تهديده لمدينة أمفيبوليس Amphipolis وفى ٣٥٤ تسقط أمام قواته مثونى Methone آخر ممتلكات أثينا على الخليج الثرامى ، وفى ٣٥١ يبدأ تهديده لاولنثوس Olynthos ، التى تطل على طريق الحبوب من الشمال ، ويجلى بعض أفراد الجالية الأثينية من إمبروس ولمنوس ، الجزيرتين الرابضتين على مدخل الهلسبونت ، وفى ٣٤٩ تزحف قواته لمهاجمة أولنثوس التى حاول ديموسثنيز فى ثلاث

مناسبات أن يستحث الأثينيين على مساعدتها ، والتى ستسقط نهائيا فى يد فيليب فى السنة التالية (١٤).

على أن ميدان السياسة الخارجية الذى تأثر إلى حد كبير بعدم اكتفاء أثينا من ناحية الحبوب وباتجاهها إلى الشرق فى سبيل سد هذه الثغرة ، لم يكن كله خصومات ، بل إلى جانب مناورات أثينا مع أعدائها واستغلال هؤلاء الاعداء لنقطة ضعفها وجدت مناسبات ودية تأثرت كذلك بسياسة القمح التى أصبحت إلى حد كبير محور السياسة الأثينية وظهرت فى صورة اتفاقات مع المناطق المصدرة للقمح مد فيها حكام هذه المناطق يدهم إلى أثينا فى أزمتها الاقتصادية من جانب ، ومنحتهم أثينا أقصى ما تستطيع من تكريم من الجانب الآخر. مثال ذلك الاتفاق الذى قام مع ليوكون Leukon حاكم منطقة كريون Kimmerion (القرم الحالية) بين ٣٩٣ و ٣٥٣ واستمر بعد ذلك فى عهد ابنيه سبارتاكوس Spartakos وبايريساديس Paerisades والذى أعفوا بمقتضاه التجار الذين يرسلون حبوبا من هذه المنطقة لأثينا من الرسوم الجمركية المقررة التى تبلغ جزءا من ثلاثين من قيمة الحبوب المصدرة وفى هذا المقام يذكر لنا ديموستنيز أن كالسثنيس Kallisthenes الذى كان يقوم بمهمة الاشراف على استيراد القمح تسلم من ليوكون ، كنتيجة لهذا الاعفاء ، مقدارا من الحبوب بلغ من وفرته أن غطى احتياجات أثينا وبقيت كمية بيعت فى الخارج بمبلغ خمسة عشر تالنتا . وقد كافأت أثينا ليوكون على ذلك فمنحته حقوق المواطن الأثينى مع إعفائه من الخدمات العامه Leitourgia ومن دفع الجمرك على أى بضائع له فى ميناء البيرايوس كما يظهر أحد محاضر جلسات مجلس العامة الأثينى قرارا بتاريخ ٣٤٧ - ٤٣٦ يكرم فيه الأثينيون ابنى ليوكون (١٥).

ولكن السياسة الخارجية الأثينية لم تكن كل ما تأثر بمشكلة القمح بل امتد تأثير هذه المشكلة ليترك طابعه على جانب كبير من حياة الأثينيين داخل مدينتهم، فى سياستهم وفى دستورهم بل وفى حياتهم اليومية . فالاحتكاكات الدولية التى وجدت

أثينا نفسها مسوقة اليها بدافع المحافظة على نفوذها فى الأماكن التى تطل على طريقها الحيوى كان لها صداها الواضح فى التيارات السياسية داخل أثينا ، فظهر من الساسة الأثينيين من رأى فى سياسة المقاومة الحربية فى هـذه المنطقة المخرج الوحيد من الأزمات الدولية التى وقعت فيها أثينا ، وقد تزعم هـذا الاتجاه ديموسثنيز الذى مافتىء منذ ظهور مقدونيا يحذر الأثينيين ضـد نوايا فيليب الذى كان يرمى إلى مد نفوذه ليس فى داخل بلاد اليونان فحسب، ولكن شرقا إلى منطقـة الهلسبونت ، وخطب ديموسثنيز عن أولينثوس وعن سياسة فيليب وعن الخرسونيزوس لا تـكاد جملة منها تخلو من مثل هـذا التحذير ، وقد تبع ذلك محاولة هذا السياسى تحويل فائض الميزانية من خزينة أموال المسرح theorikon التى كان ينفق منها على الحفلات العامة والأعياد الدينية وغيرها إلى خزينة الأموال العسكرية stratiotika التى كان ينفق منها على شئون الدفاع وما استتبعـه ذلك من مناورات سياسية استمرت نحو ثلاث عشرة سنة فى مد وجزر بين ديموسثنيز وخصـومة السياسيين وانتهت بنجاحه فى تحقيق غرضه ولكن بعد أن أفلتت من يد أثينا كل فرصة فى استعادة نفوذها(١٦). أما التيار الآخر فقدرأى أنصاره أن خير سبيل لتأمين تجارة القمح الأثينية فى الشرق هى انتهاج سياسة السلم والمهادنة فى هذه المنطقة، ومن أبرز الشخصيات التى لمعت فى هذا الاتجاه السياسى إيسكراتيس Aesokrates وإيسخنيز Aeschines ويوبولس Euboulos وغيرهم سواء من القـائمين على شئون الحكم فى أثينا أو من الخطباء السياسيين الذين أقاموا من أنفسهم أوصيـاء على مصير أثينا فى تلك الفترة التى بدأ فيها العامل الدولى يبرز فى كثير من الوضوح فى شئون بلاد اليونان وبدأت تظهر ، فى أعقاب هذا العنصر الدولى ، قوى جديدة أهمهـا القوة المقدونية . ومن المواقف التى ظهر فيه هـذا الاتجاه السلمى ، الصلح الذى تم بين أثينا وأعضـاء حلفها الثانى فى ٣٥٥ والذى اعترفت فيه أثينا باستقلالهم، وكان يتزعم الفئة المنادية بالصلح يوبولس فى الفترة التى تولى فيهـا الادارة الماليـة كما كان أكبر داعيـة له

إيسكراتيس الذى استخدم فى نشر دعايته كل ما تحتويه جعبة الخطيب السياسى المجرب حين يخاطب الأثينيين بقوله « إن مثل هـذا السلام يحرركم من ضريبة الدفاع ومن الأعباء المالية التى تترتب على تجهيز الأسطول كما سيفسح الطريق مرة أخرى أمام التجار . . . وسيقضى على مخاوف كرسبلبتيس Kersobleptes وفيليب، اللذين يخشيان ، ولهما عذرهما ، جوار النفوذ الأثينى المتحفز للإيقاع بهم »(١٧) .

هذه ، على سبيل المثال ، بعض المواقف التى تأثرت فيهـــا السياسة الداخلية الأثينية فى اتجاه أو آخر بمشكلة القمح . على أن تأثيرهذه المشكلة لم يكن بأقل أهمية من ذلك فى الجانب الدستورى من حياة الأثينيين. فنى ٤٤٥ - ٤٤٤ حين يرسل أحد الحكام الشرقيين ثلاثين ألف مندمنوس من القمح كهدية للأثينيين ، ينفذ لأول مرة القانون الخاص بحقوق المواطن الذى اقترحه بركليس ووافق عليه مجلس الاكليزيا منذ ٤٥١ - ٤٥٠ وظل مع ذلك دون تنفيذ ،والذى يقضى بألا يتمتع بالمواطنـــة الأثينية إلا من ولد لأبوين أثينيين (١٨) ، وقد كان من نتيجة تنفيذ هذا القانون أن انخفض عدد المواطنين إلى نحو ١٤ أو ١٥ ألفاً هم وحدهم الذين وزعت بينهم هدية الحبوب . حقيقة إن الباعث الأساسى على تنفيذ ذلك القانون فى تلك اللحظـة قد يكون مناورات بركليس الحزبية التى كان يرمى من ورائها إلى انتزاع التعضيد الشعبى من خصومه السياسيين بأن يستغل شعور التفرقة الذى يسود بشكل متفاوت بين الأثينى الحر والأثينى «المولد» فيلوح بقصر حقوق المواطن على الأثينيين الأحرار بما يؤدى إلى ارتفاع نصيب كل منهم من هدية الحبوب . ولـكن ، مهما يكن الأمر ، فقد ظهرت مشكلة القمح كمحور لتنفيذ القانون الجديد إن لم يكن كأساس حقيق فكحقيقة استخدمت فى معرض التـــبرير .

أما عن التشريع المباشر الذى انصب على مشكلة القمح فيظهر فى أكـثر من موضع فى القوانين الأثينية ، وفى هذا المجال يذكر لنا بلوتارخوس أن أول لائحـة من اللوائح التى ينطوى عليها دستور سولون تضع القمح بين المحصولات المحظور

تصديرها إلى خارج البلاد (١٩) . وأرسطو يحدثنا فى « دستور الأثينيين » عن اللجنة التى كانت تتولى القيام على شئون القمح Sitophylakoi ، وقد كانت هذه تضم فى بادىء الأمر عشرة أعضاء يختارون بطريق الاقتراع ، خمسة عن منطقة المدينة ومثلهم عن ميناء البيرايوس ، ثم زاد عدد الأعضاء فيما بعد تبعا لزيادة الأهمية التى أصبحت أثينا تعلقها على مسألة تموين سوقها بالمقادير اللازمة من الحبوب ، فبلغ خمسة وثلاثين عضوا ، عشرون منهم للمدينة والباقى للميناء . أما عن واجباتهم فهى التأكد من بيع الحبوب فى السوق الأثينية بثمن معقول ، ومراقبة أصحاب المطاحن حتى يبيعوا دقيق الشعير بثمن مناسب لثمن الشعير ، والإشراف على الخبازين حتى يبيعوا أرغفة الخبز بثمن يتناسب مع ثمن القمح وبالوزن الذى يحدده المراقبون ، إذ يحتم القانون على هؤلاء أن يحددوا الوزن العادى المعقول للرغيف . وهناك أيضا عشرة مشرفون آخرون epimeletai tou emporiou مهمتهم مراقبة السوق وإرغام التجار على أن يحضروا إلى سوق المدينة ثلثى مقادير الحبوب التى تأتى إلى السوق العامة »(٢٠) ومن الواجبات التى ينسبها لسياس إلى المشرفين على شئون القمح تحديد الكمية القانونية التى لا يجب على تجار القمح Sitopolai أن يحصلوا على أكثر منها حتى لا يتسنى لأحدهم أن يحتكر السوق بأية صورة من الصور(٢١) ، كما يحدثنا ديموسثنيز عن تحريم القانون على أى أثينى أو أى شخص يقيم فى أثينا أن ينقل قمحا إلى ميناء أخرى غير مينائها (٢٢) . وأخيرا فاذا كان القانون دقيقا فى تنظيم كل مايتعلق بمسألة القمح من أمور فقد كان كذلك شديدا فى تنفيذ كل مايتمخض عنه هذا التنظيم من تعليمات ، وإذا كان لنا أن نصدق بولكس Pollux ، فقد بلغ من عناية أولى الأمر فى أثينا بالقضايا التى تتعلق بشئون القمح أن جعلوا الفصل فيها يتم فى مكان خاص هو مبنى الأوديون الذى تنسب إقامته إلى بركليس (٢٣) .

ولم تكن مشكلة القمح بأقل ظهورا فى حياة الأثينيين الاجتماعية اليومية منها فى دستورهم وسياستهم الخارجية وقد اصطبغت فى هذا الصدد بكل ما تحويه حياة

الأفراد والجماعات من خير وشر وبساطة وتعقيد وتزاحم فى سبيل البقاء واستغلال لهذا التزاحم ، فنحن نرى الأثينيين فى وقت من أوقات الشدة وقد ازدحم المقيمون منهم فى المدينة أمام مبنى الأوديون حيث يوزع عليهم أولو الأمر ما تبقى فى السوق من دقيق الشعير ، بينما هرع المقيمون فى منطقة الميناء إلى حيث يقسم بينهم الخبز الموجود ، بمقدار محدد وبثمن محدد وهم يكادون يموتون من الزحام (٢٤) ، ومرة نرى بعض الأجانب المقيمين فى أثينا Metoikoi يسهمون فى حل أزمة القمح حين يرتفع ثمن المديمنوس حتى يبلغ ١٦ دراخمة ، فيستوردون عشرة آلاف مديمنوس من الدقيق ويوزعونها على الأثينيين فى مبنى البومبيون بالثمن المعتاد وهو خمس دراخمات ، كما يتبرعون فى مناسبة أخرى بمبلغ تالنت لشراء حبوب للشعب . أما الجانب الآخر من الصورة فنرى فيه الحيل التى كان يلجأ اليها بعض التجار حتى يمكنهم أن يحتكروا سوق القمح وأن يتلاعبوا بالتالى فى أسعاره . وفى هذا المجال يروى لنا ليسياس Lysias ما حدث حول ٣٨٧ — ٣٨٦ قرب نهاية الحرب الكورنثية : كان الوقت إذ ذاك شديداً على الأثينيين ، إذ أنها ، رغم النجاح المتقطع الذى كسبته فى بعض المعارك . كانت لاتزال أبعد ماتكون من استعادة امبراطوريتها البحرية وسيادتها فى بحر إيجه ، وكانت السوق الأثينية على وشك النضوب من القمح وقد زاد الموقف تعقيدا قسوة الشتاء فى تلك السنة مما كان له أسوأ الاثر على محصول الحبوب الضئيل بطبيعته . فى هذه الظروف نجد بعض التجار يستغلون الموقف فيستوردون الحبوب فى حركة شبه احتكارية ليظروها مرة أخرى بعد أن يلهب من أسعارها العرض البسيط والطلب المتزايد ، فاذا وجه اليهم بعض اللوم أنكروا وجودها عندهم واحتجوا مرة بالسفن التى حطمت وهى فى طريقها من البحر الاسود أو التى أسرها اللكيدايمونيون ومرة بالمناطق التجارية التى يحاصرها العدو ، فاذا لم يكن هناك من الأخبار ما يعتمدون عليه فى اخفائهم للقمح أو رفعهم للأسعار ، خلقوا الاشاعات وقدموها كمعاذير بدلا من الأخبار (٢٦) . فإذا تركنا الحرب

الكورنثية وتوغلنا فى القرن الخامس حتى ثلثه الأخير أو قبيل ذلك بقليل تكررت أمامنا نفس الصورة ولكن تحت ظروف أخرى وبتفصيلات أخـــرى ، فنجد ديونيسودوروس Dionysodoros وپارمينيسيوس Parmeniseos يتفقان مع كليومينيس Cleomenes ، الذى أقامه الاسكندر على الشئون المالية فى مصر، اتفاقا مؤداه أن يحولا كل ما يستوردانه من القمـــح إلى مصر حيث يبقى إلى الوقت الذى تزداد فيه حاجة أثينا إلى القمح وترتفع ، تبعا لذلك ، الأسعار ، فيعيدوا استيراده بعد أن يضمنوا سيطرتهم على السوق (٢٧) .

٢

— مناجم الفضـــة
— الثروة الحجرية
— التربة الصلصالية

على أن ظروف أثينا إذا كانت قد حرمتها محصولا من الحبوب يكفى حاجة سكانها بالشكل الذى اضطر معه الأثينيون إلى تقنين كل ما يتصل بهذه السلعة النـادرة وإلى القسوة فى تطبيق ما يقننونه من نظم فى هذا المجـال، والذى أوعز إلى الانتهازيين بالانتفاع بما يوجده هذا الوضع من فرص للكسب بطريق فيه كثير من الالتواء ، والذى انتهى بأن يدفع بالأثينيين فى سبيل الخبز إلى المعترك الخشن الذى تناوب فيه الصعود والهبوط سياستهم الخارجية منذ أواخر القرن السادس إلى أن وضـع فيليب حداً لها فى النصف الثانى من القرن الرابع ... إذا كانت ظروف أثينـا قست عليها فى هذا الجانب ، فانها كانت محابية لها فى جانب آخر ، فمنحتها مقادير من الثروة التى تضمها فى باطن أرضها ، أو فى الجبال التى تحيط بها ، كانت من الوفرة بحيث عوضتها ، فى أكثر من صورة ، عن موقفها الضعيف فيما يختص بالمحصول الزراعى .

أحد جوانب هذه الثروة هو مناجم الفضة التى وجدت فى منطقة اللوريون الواقعة

فى كل الجزء الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة أتيكا ، وقد بدأ الأثينيون يستغلونها بشكل جدى فى أواخر القرن السادس على عهد بيت بايزستراتوس (٢٨) ، حين وجد الطاغية الأثينى ، بعد أن قوض دعائم الحكم الاستقراطى ، أنه لابد أن يصرف نشاط العامة من الانشغال بالامور السياسية ومناقشة الاساس الذى أقام عليه حكمه إلى جوانب أخرى ترتفع بمستواهم المعيشى فتستميلهم اليه بالشكل الذى يضمن لحكمه قاعدة شعبية لا بأس بها . فإذا كانت سنة ٤٨٣ - ٤٨٢، اكتشفت مناجم مارونيا Maroneia ، أحد أقسام منطقة اللوريون واستخرج الاثينيون منها ما قيمته مائة تالنتا من الفضة ، وفى هذا الوقت يظهر ثمستوكليس Themistokles الذى نشأ فى إقليم فرياروى Phrearroi بالقرب من منطقة المناجم واستطاع أن يخبر شئونها عن كثب ، فيرى فى هذا الكشف الجديد ظرفا مواتيا لأن يبرز إلى حيز الواقع الفكرة التى كانت تراوده إذ ذاك وهى إنشاء أسطول أثينى قوى ، وهكذا يقدم إلى مجلس الاكليزيا اقتراحه بأن تخصص الدولة كسبها الجديد من مناجم الفضة لبناء مائة سفينة وينجح رغم معارضة أرستيديس Aristeides فى كسب موافقة المجلس على اقتراحه ، (٢٩) ، وقد كانت هذه السفن المائة هى التى كسبت للاثينيين النصر الذى أحرزوه فى سلاميس كما كانت نواة الأسطول الذى ارتفع بالقوة البحرية الاثينية إلى الدرجة التى مكنتها بعد الحروب الفارسيه من تزعم أول حلف هلينى بحرى .

وقد كان للثروه التى جناها الأثينيون من مناجم اللوريون ـ إلى جانب تبرعات أعضاء الحلف الديلى التى لم تلبث أن وجدت طريقها إلى الخزانة الأثينية ـ أثرها الظاهر فى إنعاش موقف أثينا الاقتصادى إبان زعامتها فى عصر بركليس الذهبى حتى نشوب الحروب البلوبونيزية . وإذا كانت حملات اسبرطة فى سنتى ٤٣٠ و٤٢٧ فى بداية هذه الحروب لم تعرقل العمل فى المناجم بشكل خطير فان احتلال دكليا Dekellia فى ٤١٣ وما تبع ذلك من فرار الرقيق الذين كانوا يعملون فى هذه المناجم إلى صفوف العدو كان له أثره البالغ فى وقف النشاط الأثينى فى تعدين الفضة وبالتالى فى وضع

حد لأكبر مصدر للدخل الأثيني . كما تنبأ بذلك ألكبياديس Alkibiades [٣٠]، الأمر الذى أضعف اقتصاديات أثينا لفترة امتدت نحو نصف قرن وبشكل احتاج إلى اقتراحات مفكر اقتصادى فى قدرة زينوفون Xenophon ومشروعات مالى فى قدره الخطيب ليكرجوس Lykurgos قبل أن يعود اليها انتعاشها [٣١] .

جانب آخر من جوانب ثروة أتيكا الطبيعية ضارع مناجم اللوريون بل فاقها فى كثير من الأحيان تمثل فى وفرة المواد البنائية وتنوعها ، فإلى جانب الحجر الجيرى الأسمر القاتم الذى صنعت منه الجدران الأولى لحصن الأكروبوليس وجد حجر كارا وهو نوع آخر من نفس الحجر السابق يمتاز بكثافة تركيبه ولونه الرمادى المشبع بحمره ويستخرج من محاجر جبل هيمتوس Hymettos على مسافة خمسة كيلومترات إلى الجنوب الشرقى من أثينا ، كما وجد نوع ثالث من نفس الحجر أقل صلابة من سابقيه ويضرب لونه الرمادى إلى الصفرة ، وهو النوع الذى استخدم على نطاق واسع لوضع أسس الأبنية العامة فى عهد بركليس .

على أن ثروة أثينا الحقيقية فى هذا الجانب تتمثل فى محاجر الرخام المنتشرة فى أرجائها ، وقد بدأ الأثينيون فى التنبه إلى هذه المحاجر منذ عهد بيزستراتوس واستخدموا فى بادىء الأمر الرخام الأبيض الناعم الذى استخرجوه من المحاجر التى لا تزال ظاهرة حتى الآن على جوانب جبل بنتلكوس Pentelikos ، والذى شاع استخدامه فى النحت والعماره فى عهد بركليس ، وقد كان تأكسد خام الحديد الذى يحويه هذا النوع من الرخام يكسوه بطبقة ذهبية تميل إلى دكنه خفيفة تزيد فى جماله بمرور الوقت ، كما اتجهوا بعد ذلك إلى الرخام المعرق الذى يميل إلى الزرقة والذى كانوا يستخرجونه من محاجر هيمتوس السابقة الذكر ، وقد بدأ هذا النوع يحوز الإعجاب فى وقت متأخر من القرن الرابع ثم زاد الاقبال عليه بصفة خاصة فى العصر الهلينى حين كان يفضل على محاجر بنتلكوس .

هذه الثروة الطبيعية الضخمة من مواد البناء التى وجدت فى متناول

ذوى المواهب ، ظهر أثره واضحــــا فى تبريز الفنانين الأثينيين فى ميدان العمارة والنحت فظهر فيدياس Phidias وأتباع مدرستة، فى النصف الثانى من القرن الخامس الذين لايزال بعض ما خلفوه ظاهرا فى أبنية البارثنون وفى أروقة المتحف البريطانى وظهر براكستليس Praxiteles صاحب تمثالى أفروديتى وهرميس الذى امتاز بطريقته الخاصة فى إظهار البشرة المجسمة والعضلات اللينة والوجه المائل إلى كثير من التفكير والتعبير . والذى امتد تأثير مدرسته إلى العصر الهلنستى فى الفترة بين ٣٢٣ و١٠٠ ق.م. فظهرت الليونة والتعبير اللتين امتازت بها فى تمثال أبولو وغيره ، كما ظهر باراسيوس Parrhasios وكفسودوتوس Kephisodotos وغيرهم من الفنانين الأثينيين الذين برزوا فى النحت والعمارة من كل نوع ، سواء فى ذلك الطـراز الأيونى الذى يظهـــر فى مبنى الإرخثيون Erechtheon والبـارثنون Parthenen ، أو الدورى الذى يظهر فى البروبيلايا Propylaea ومدخل الأكروبوليس، أو الـكورنثى الذى اختاره الامبراطور هادريان للأعمدة التى أتم بها معبد زيوس بعد ان ابتداء بايزستراتوس على النظام الأيونى قبل ذلك بسبعة قرون(٢٢) .
ولن أحاول سرد الأمثلة العـديدة التى ظهر فيه فن النحت والمعمار الأثينى فى أنضج صوره ولـكن يكفى فى هذا المجال أن أذكر إلى جانب الأمثلة السابقة ، البهو الملـكى Stoa Basilike ومعبـد أبولو وبهو أتالس والثيسيون Theseon والأوديون Odeon والبتولمايون Ptolemaeon ومسرح ديونيزيوس Dionysos وغير هـذه من تحـف الفن الأثينى التى لم يقتصر صيتهـا وأثرها على أثينا فحسب وإنما عبر حدودها وبخاصة فى العصر الهلنستى ليـكون مثـالا يحتـذى فى كل مكان تسربت إليه الحضارة الإغريقية .

وأخيرا، فالى جانب هذين المصدرين من مصادر الثروة الطبيعية الذين وجدهما الأثينيون مرة فى مناجم اللوريون ومرة فى محاجر هيمتوس وبنتلـكوس ، امتازت أتيكا بتربتها الصلصالية وبخاصة فى منطقة كفسوس Kephissos ، وتحتوى هذه التربة على

نسبة كبيرة من الحديد بحيث تصير حمراء اللون بعد حرقها ، كما تدل الأشكال العديدة التي صنعت منها على نسبة غير عادية من المرونة . وقد ابتدأ اتجاه الأثينيين إلى صنع المزهريات وسائر الآنية الخزفية منذ وقت مبكر فظهرت أولا المزهريات التي غزت في أواسط القرن السادس أسواق إتروريا وجنوب إيطاليا وشرق البحر الأبيض والتي كانت دليل الأثريين والمؤرخين عن كثير من جوانب الحياة الاجتماعية في أثينا في ذلك الوقت وعن مدى الاتصال التجاري والحضاري بين أثينا وباقي شواطىء البحر الأبيض ، ثم نشطت هذه الصناعة بوجه خاص ابتداء من أواسط القرن ، هنا أيضاً ، في عهد بيزستراتوس فغزى الخزف الأثيني يوبويا Euboeoa وناكسوس Naxos على حساب خزف ساموس وكورنثه وأيجينا كنتيجة للعلاقة السياسية الودية التي أقامها الطاغية الاثيني مع حكام هاتين الجزيرتين ، كما انتشر كذلك في مناطق البحر الاسود بعد أن استتب نفوذ الاثينيين هناك على أثر استيلائهم على ميناء سيجيون (٢٣) .

٣

— الموقع الجغرافي
— الحواجز الجبلية
— التعاريج الساحلية

على أن الثروة المعدنية والحجرية والتربة الصلصالية المرنة لم تكن كل ما حبت به الطبيعة أثينا ، فان موقعها الجغرافي والظروف التي أحاطت به كانت إحدى الدعائم التي ارتكزت عليها أثينا في الاستحواذ على زعامة الهيلينيين في بحر إيجة ،على حساب المنطقتين أو الكتلتين الاخريين اللتين كان من الممكن أن تنبعث عنهما هذه الزعامة ، أما المنطقه الاولى فكانت مجموعة الجزر المتناثرة في بحر إيجة والتي تكون في كثرتها وتقاربها جسراً بين اليونان الاصلية في الغرب والمدن اليونانية المنتشرة على الساحل

الغربى لآسيا الصغرى فى الشرق ، وقد كان من الممكن أن تتركز فيها السيادة البحرية فى هذه المنطقة لو أنها استطاعت أن تكون وحدة فى اقتصادياتها وفى اتجاهاتها السياسية ولو أن حدودها كانت فى أمن نسبى من أى عدوان خارجى بحيث يتوفر لها الاستقرار اللازم لاستمرار زعامتها . ولكن هذه الشروط لم تتوفر فى جزر بحر إيجة ، فان النزعة الانفصالية، التى كانت طابعاً لبلاد اليونان، وقفت حائلا دون أى اتحاد ، وفى بعض الأحيان دون أى تقارب ، فى مشاربها أو اتجاهاتها السياسية ، وقد أدى هذا بدوره إلى استقلال كل جزيرة من الناحية الاقتصادية بالشكل الذى أصبح من العسير معه ، إن لم يكن من غير الممكن إطلاقا ، أن تقوم لها الدعامة الاقتصادية التى يجب أن يرتكز عليها أى نوع من الزعامة أو السيادة . كذلك كان الوضع الجغرافى لهذه الجزر فى الممر البحرى بين الشواطىء الأوربية والآسيوية نقطة ضعف أخرى فى موقف هذه الجزر المتفرقة ، فهى بهذا الوضع تقع فى طريق أى هجوم يأتى من الساحل الآسيوى أو يشنه يونان الغرب على هذا الساحل ، وإذا كان مثل هذا الخطر لم يأت إلا مع بداية القرن الخامس ، فان خطرا آخر كان قد ظهر فى المياه الايجية منذ وقت مبكر وأخذ يهدد الأمن والنشاط التجارى فى هذه المنطقة . كان هذا هو خطر القراصنة الذين انتشروا فى هذه المنطقة على نطاق واسع بشكل أصبحت معه القرصنة أداة اقتصادية تكاد تكون على قدم المساواة مع التجارة، وفى هذا الصدد يروى لنا صاحب الاوذيسة كيف يسأل سكان إحدى الجزر ، البحارة الذين رسوا على شاطئهم، إذا ما كانوا تجارا أم قراصنة « يجوبون البحار مخاطرين بحياتهم ويجلبون الدمار على أبناء البلاد الغريبة » فى لجة ، كما يرى ثوكيديديس ، تنم على شىء من التقدير (٣٤) . وقد ساعد على إزدهار القرصنة فى منطقة بحر إيجة منذ العهد الهومرى أن المدن والجزر اليونانية المحيطة بهذا البحر كانت تلجأ اليها فيما يقوم بينها من منافسة تجارية كسلاح فعال تدمر كل منها سفن خصومها به وتنهب سلعها ، كما حدث بين ميليتوس وساموس وأيجينا الذين كانوا يتنافسون على السوق المصرية

ويذكر لنا هيرودوت فيما يتعلق بهذه النقطة أن بوليكراتيس Polyrates الذى جعل من ساموس قوة بحرية من الطراز الأول فى النصف الثانى من القرن السادس كان ينهب أى تجارة دون تمييز وأن المبانى والمنشآت العامة التى أقامها فى ساموس قامت كلها بأيدى البحارة الذين أسرهم قراصنته (٣٥) .

فى مثل هذه الظروف كان لا بد أن ينعدم بين جزر بحر إيجه الأمن والاستقرار اللازمان للزعامة المنشودة ، والآن لننظر إلى المنطقة الثانية التى كان من الممكن أن تظهر فيها زعامة هيلينية بحرية ، وهى نطاق المدن اليونانية الممتد على الساحل الغربى لآسيا الصغرى . لقد ظهرت مدن هذا النطاق بالفعل من وقت مبكر فى مجال التجارة والنشاط الاستعمارى بل وفى ميدان الثقافة ، والأوذيسة خير شاهد على مدى تبكير سكان أيونيا فى المغامرة البحرية حتى مياه البحر الأسود ، كما أن المستعمرات العديده التى أقامتها ميليتوس فى الشمال الشرقى من بحر إيجة تعتبر من أهم المستعمرات اليونانية فى هذه المنطقة وأقدمها ، وأخيرا فان القصائد الهومرية ، وهى أقدم أدب يونانى ، ظهرب فى هذا النطاق اليونانى الاسيوى . وقد ساعدت هذه المدن على الوصول إلى هذا المستوى من النشاط فى أغلب جوانب حياتها عدة عوامل أهمها أنها تقع عند مصبات الأنهار التى تنبع من هضبة آسيا الصغرى ، إذ هى بموقعها هذا تتمتع بمحيط لا بأس باتساعه من التربة الخصبة التى تجلبها هذه الأنهار إلى مصباتها وبالتالى فهى فى هذا الجانب من حياتها الاقتصادية ترتكز على دعامة قوية ، ثم إنها بوضعها هذا تقع عند نهاية طرق القوافل التجارية التى تتبع وديان الانهار فى منطقة تقطعها عرضا سلاسل الجبال بشكل أقرب ما يكون إلى الانتظام ، وهكذا تتحكم بالضرورة فى كل تجارة الشرق التى تصل إلى هذه المنطقة المتطرفة من آسيا كما تصل اليها طرائف من حضاراته التى سبقت حضارة الإغريق (٣٦) .

تلك إذن هى جوانب القوة التى قفزت بالكتلة اليونانية الشرقية فى مضمار النهوض وكان من الممكن أن تدفعها إلى مرتبة الزعامة فى العالم الهلينى ، ولكن نقطة

ضعف واحدة قضت على هذه الفرصة السانحة ، وهى أن وديان الانهار التى كانت تتبعها قوافل التجارة إلى هذه المدن كانت كذلك هى الطرق الطبيعية التى لابد أن تسلكها الجيوش الآتية من الشرق ، وهكذا كان لا بد للمدن اليونانية الواقعة على الساحل الآسيوى من أن تقع تحت رحمة أية قوة عسكرية تسيطر على منطقة آسيا الصغرى . حقيقة إن هذه المدن ، كما رأينا ، استطاعت أن تنهض وأن تزدهر فى الفترة التى عاصرت وأعقبت إنشائها ولكن ذلك كان رهنا بالظروف المواتية التى أحاطت بها إذ ذاك ، فامبراطورية الحيثيين التى كانت تسيطر على هذه المنطقة كانت قد بدأت تتفكك وتنهار وقت ظهور هذه المدن ، أما فريجيا Phrygia وليديا Lydia وهما الدولتان اللتان سيطرتا بعد ذلك على غرب آسيا الصغرى فقد كانتا مهادنتين للمدن اليونانية، وقد يرجع ذلك،كما يرجح البعض إلى أن سكانهالم يكونوا شرقيين خلصاء وإنما كانوا مزيجا من عناصر شرقية وغربية ، كما قد يرجع إلى أى سبب آخر ، ولكنهم كانوا على كل حال غير معادين لليونان .

وإذا كانت ليديا قد مدت نفوذها إلى حد كبير على هذه المدن ، فقد كان حكامها ميالين دائما للتفاهم مع ساكنيها من اليونان واستمروا كذلك إلى أن سقطت دولتهم فى أواسط القرن السادس وإذ ذاك وجد يونان آسيا الصغرى أنفسهم وجها لوجه مع قوة جديدة معادية هى قوة الفرس - القوة الشرقية الخالصة - الأمر الذى وضع حدا للظروف المواتية التى حالفت هـــذه المدن منذ نشأتها وهكذا أصبح انهيارها السياسى أمرا مرهونا بزمن قصير وقد كانت الثورة الإيونية فى هذا المجال محاولة يائسة للصراع مع الظروف الجغرافية التى سيطرت على مصير هذه المدن التى زاد من ضعف موقفها صعوبة الاتصـــال البرى بينها بسبب الجبال التى تمتد فى هذه المنطقة عرضا بانتظام فى محاذاة وديان الأنهار مما قصر فرصتها الوحيدة للاتصال ببعضها على طريق البحر ، الأمر الذى لم يكن مجديا على أى حال أمام القوة الفارسيـــة ،

وبسقوط ميليتوس انتهى مجد أيونيا وأمل المدن اليونانية على الساحل الأسيوى فى سيادة المياه الإيجية .

هذه إذن هى المنطقة أو الكتلة الثانيـــة التى كان يمكن أن تظهر فيها زعامة يونانية بحرية وقد رأينا أنها كسابقتها ، منطقة الجزر التى تتوسط بحر إيجه ، تشكو أو بعبارة أكثر تحديدا بدأت تشكو منذ أواسط القرن السادس ، من مشكلة عدم الاستقرار ، الأمر الذى يتنافى ودعائم السيادة المطمئنة الراسخة . بقيت إذن الكتلة اليونانية الثالثة فى بلاد اليونان نفسها التى كانت أظهر مدنها أو دولها فى فى هذه الفترة هى اسبرطة وكورنثة وأيجينا وأثينا ، إذ كانت خالكيس Chalkis وإرتريا Eretria - اللتان كانتا فى طليعة المدن اليونانية ذات النشاط التجارى - قد أنهكت كل منها الأخرى فى الحرب الليلانتية فى نهاية القرن الســـابع . أما اسبرطة فقد كانت بعيدة إذ ذاك عن أية زعامة بحرية ، إذ كان توجيهها الجغرافى بريا أكثر منه بحريا وبالتالى فقد اتجهت إلى التوسع برا عن طريق احتلال المناطق المجاورة أو فرض سيطرتها عليها، ضاربة بذلك ، من حيث لا تدرى ، نطاقا حول تحركاتها خارج البلوبونيز بعد أن أصبحت الأقلية الاسبرطية متحكمة فى أغلبية من الجيران Perioikoi والموالى helotai والمسينيين وأصبح فى انشغالها بالأمور الخارجية ، فى ذلك الوقت بالذات ، مخاطرة بمركزها داخل البلوبونيز . وأما كورنثة فرغم نشاطها البحرى والتجارى ورغم قوتها التى كان من الممكن أن تمهد لزعامتهـا فى بلاد اليونان نجد أن وضعها الجغرافى كان يوجه نشاطها واهتمامها نحو المياه الغربية قبل كل شىء . لم يبق إذن من المدن التى ترشحها الظروف للزعامة فى العـالم اليونانى إلا ايجينـا وأثينا ، وقد كان اصطدام هاتين أمرا لا مفر منه إذا أدخلنا فى اعتبارنا الوضع الجغرافى لجزيرة ايجينا عند منفذ أثينا البحرى على الخليج الساورنى والذى كان لا بد أن يضايق أثينا إلى حد كبير بعد أن مكنت لنفسها فى سلاميس وبدأت ترمى بأنظارها عبر حدود أتيكا . وقد كانت إيجينيا قوة تجارية من الطراز الأول عرفت سفنهـا

الطريق إلى شواطىء مصر والبحر الاسود من وقت مبكر وعرف سكانها وحكامها الإثراء عن طريق هذا النشاط التجارى (٣٧) ، ولكن لم يقدر لها ، رغم كل هذا ، أن تصمد طويلا فى صراعها مع أثينا ، فبعد الحروب الميدية التى لم تكن أكثر من هدنة فى سلسلة الصراع بين المدينتين ، فرضتها ظروف الخطر الفارسى المشترك ، لم تلبثا أن استأنفتا صدامهما السابق الذى انتهى بمحاصرة أثينا لايجينا فى ٤٥٩ واستيلائها عليها بعد ذلك بسنتين (٣٨) ـ الأمر الذى وضع حدا لأية منافسة من جانب إيجينا .

وليس من شك فى أن أثينا استعانت فى قضائها على قوة غريمتها بالموارد التى وجدت تحت تصرفها أثناء زعامتها للحلف الديلى ، ولكن من المؤكد أن ظروف أثينا الجغرافية المواتية كان لها أكبر الأثر فى تفوقها على إيجينا وفى زعامتها لحلف ديلوس .

ففى المقام الأول نجد أن أثينا تتحكم فى مساحة من الارض تفوق كثيرا مساحة إيجينا وبالتالى فقد كان لها السبق على منافستها فى مجال الانتفاع بالموارد الطبيعية الوافرة والاعداد الغفيرة من المحاربين وإذا كانت المساحة الواسعة فى بعض المناطق مثل تساليا وبويوتيا قد أدت إلى التفكك كنتيجة لتنافس أكثر من مركز من مراكز التجمع السياسى والاقتصادى ـــ الامر الذى جعل نظام المدن المتحالفة يقوم فى هاتين المنطقتين مقام الوحدة السياسية المركزة ـ فان ظروف أتيكا الجغرافية قد أبعدت عنها مثل هذا التفكك ، إذ أن أثينا كانت المكان الوحيد فيها الذى يتمتع بكل مقومات المركز السياسى والتى لم يكن أى مكان آخر يستطيع أن يقف فى طريقها لمدة طويلة من الزمن . وقد ساعدها على ذلك موقعها فى وسط أكبر بقعة صالحة للزراعة فى أتيكا ـ الأمر الذى ضاعف من أهميته قلة الأماكن الصالحة للزراعة فى أتيكا . كذلك كانت سهولة اتصالها النسبى بباقى أجزاء أتيكا عاملا فى جعلها مركز المواصلات الوحيد فى شبه الجزيرة . حقيقة إن جبال إيجاليوس

Aegaleos تفصلها عن سهل ثريا الذى تقع فيه إليوسيس (وقد كانت هذه ، كنتيجة لذلك ، من آخر المناطق التى دخلت فى اتحاد أتيكا) ، ولكن الفجوة التى تفصل بين جبال هيمتوس وبنتلكوس جعلت أثينا على اتصال مباشر بسهول الأراضى الوسطى Mesogaea وماراثون وبمنطقة المناجم فى اقليم اللوريون وأخيرا فان جوار أثينا لموانىء فاليرون Phaleron وبيرايوس Piraeos قد ضمن لها المقام الأول فى أتيكا منذ أن اتجه سكان هذه المنطقة إلى ركوب البحر(٣٩).

وهذا يقودنا إلى النقطة الأخيرة فى الحديث عن الظروف الجغرافية التى أحاطت بأثينا ، وكان لها أكبر الأثر فى تشكيل تاريخها منذ أن بدأت تظهر كقوة من قوى المرتبة الأولى فى بلاد اليونان ؛ هذا الظرف الأخير هو التوجيه الجغرافى لأتيكا نحو البحر ، وقد أدت إلى ذلك ، من جهة ؛ الحواجز الجبلية التى تكاد تفصل بين أتيكا وبين باقى البلاد اليونانية المتاخمة لها فى شبه الجزيرة البلقانية . حقيقة إن الاتصال ليس عسيرا بينها وبين بويوتيا عبر جبال كيثايرون Kithaeron وبارنيس Parnes – وقد كان لذلك نتيجته فى النزاع الطويل المستمر بين أثينا وطيبة على مدينة أوروبوس Oropos الواقعة عند الحدود الأتيكية البويوتية والتى تتحكم فى الطريق البحرى الى خالكيس وإرتريا الواقعتين على الساحل الغربى لجزيرة يوبويا Euboea – ولكن فى غير هذا الاتجاه ينطبق الانفصال الجغرافى على أتيكا انطباقا يكاد يكون تاما ، ففى الغرب كانت تفصل بينها وبين جارتها ميجارا Megara جبال كراتا Kerata المنيعة التى تمتد دون انقطاع بين خليج كورنثة والخليج السارونى بينما يمتد حاجز آخر هو جبال جيرانيا Geranea إلى جانب الحاجز الأول ليسد الطريق نهائيا بين أتيكا وشبه جزيرة البلوبونيزوس ، وقد كانت النتيجة الطبيعية لكل هذا هو أن ابتعدت أتيكا عن جاراتها فى شبه جزيرة المورة بقدر ما اتجهت إلى الشرق ، حيث البحر والتجارة ومجال الزعامة البحرية فى المياه الإيجية

دون أن يعترض سبيلها ، ومن جهة جاراتها ، إلا مسألة انتزاع جزيرة سلاميس من منطقة نفوذ ميجارا .

وقد كان لأتيكا من تعاريجها الطبيعية ما أهلها لهذا الاتجاه البحرى ، اذ أن الجبال الساحلية غير مستمرة مما ساعد على وجود مناطق صالحة للاستعمال كموانىء طبيعية ، فوجدت ميناء براسياى Prasiae التى استخدمت فى فترة مبكرة من تاريخ أتيكا ، قبل أن يجتذب ظهور أثينا ونموها الجزء الأكبر من الحركة التجارية البحرية إلى الخليج السارونى . كذلك وجد خليج ماراثون الذى يحميه لسان أرضى من الرياح الصيفية الشمالية الشرقية ، كما وجدت فى الساحل المقابل فاليرون وموتخيا Mounichia وبيرايوس ، وهى الموانى التى سيتركز فيها أغلب النشاط البحرى والتجارى لأثينا فى فترة ظهورها السياسى فى القرنين الرابع والخامس (٤٠)

وقد كان لهـــذا التوجيه الجغرافى البحرى أثره الواضح فى تاريخ أثينا الذى قد لا نبالغ كثيرا إذا وصفناه بأنه سلسلة من التجارب البحرية ، فأول مغامرة جدية لأثينا فى ميدان السياسة الخارجية تمثل فى الحملة البحرية التى استولت على سيجيون وثانى مغامرة يصح أن توصف بنفس الوصف كانت إرسال السفن العشرين لمساعدة المدن الأيونية فى ثورتها على الملك الفارسى ، والخطة الحربية التى كسبت لأثينا نصر سلاميس فى أثناء الحروب الفارسية كانت خطة بحرية لموقعة بحرية والحلف اليونانى الذى تألف فى أعقاب الحروب الفارسية تحت زعامة أثينا كان حلفا بحريا فى عضويته وفى تفاصيله . وإذا كانت الحروب البلوبونيزية قد تكونت فى مرحلتها الأولى من سلسلة من الحملات البرية ، فانها لم تلبث أن انتقلت فى المرحلة الثانية إلى الميدان البحرى فى صقلية وهى على كل حال قد انتهت بهزيمة أثينا فى موقعة بحرية ، فاذا أفاقت أثينا فى النصف الأول من القرن الرابع من آثار صدمة ايجوس بوتامى وجدنا الحلف الذى تحاول تزعمه مرة أخرى حلفا بحريا كذلك ووجدنا أن أكبر اشتباك لها مع أعضائه فيما بعد اشتباك بحرى ، وأخيرا فاذا كانت الضربة

التى وجهها اليها فيليب فى سهول بويوتيا قد تركتها وهى مترنحة فان قضاء مقدونيا النهائى على استقلالها كان بعد تدمير الأسطول الأثينى فى الحرب اللامية فى ٣٢٢ ق.م.

هذا ، ولم تكن السياسة الخارجية هى المجال الوحيد الذى ظهر فيه هذا التوجيه الجغرافى البحرى ، بل ظهر كذلك فى تنظيمات أثينا الداخلية ؛ ففى الادارة المالية قسم مخصص للأموال التى ينفق منها على بناء السفن ، له أمينه الذى يقوم على شئونه ho ton trieropion tamias (٤١) ، كذلك نجد أن أحد واجبات مجلس المداولة Boule كان الاشراف على بناء عشرة سفن فى السنة ، فاذا لم يقم بذلك حرم من التاج الذى كان يقدم اليه كعلامة للتقدير فى آخر العام « حتى ولو أدى كل مهامه الأخرى على أكمل وجه » (٤٢) .

كذلك كان للمواطن الذى يكلف باعداد سفينة والانفاق عليها جائزة فخرية إذا أعد سفينته للابحار أسرع من غيره ، بينما يوقع عليه الجزاء المناسب إذا تأخر عن موعد الابحار (٤٣) وأخيرا فلعل تأثير الاتجاه البحرى على نظم أثينا لم يظهر فى شىء ظهوره فى إدارة شئون الأسطول trierarchia التى تعرضت منذ بداية تنظيمها فى أيام ثمستوكليس حتى تحطيم الأسطول الاثينى فى ٣٢٢ لأكثر من تغيير وكانت مجالا للصراع السياسى والادارى فى أكثر من مناسبة بين خصمين فى قدره ديموستنيز ودهاء إيسخنيز .

٤

— مجمل

من هذا العرض السريع نجد أن الظروف الجغرافية كان لها تأثيرها البالغ فى حياة الاثنيين ، سواء اتخذت مظهر السياسة الخارجية ، أو الانتاج الفنى أو التنظيم الدستورى الداخلى . حقيقة إنه يكون من الخطأ أن نحاول ، كما فعل جرندى ، (٤٤) أن ننسب كل شىء فى هذه المجالات الثلاثة أو فى أحدها إلى الظروف الجغرافية فحسب ،

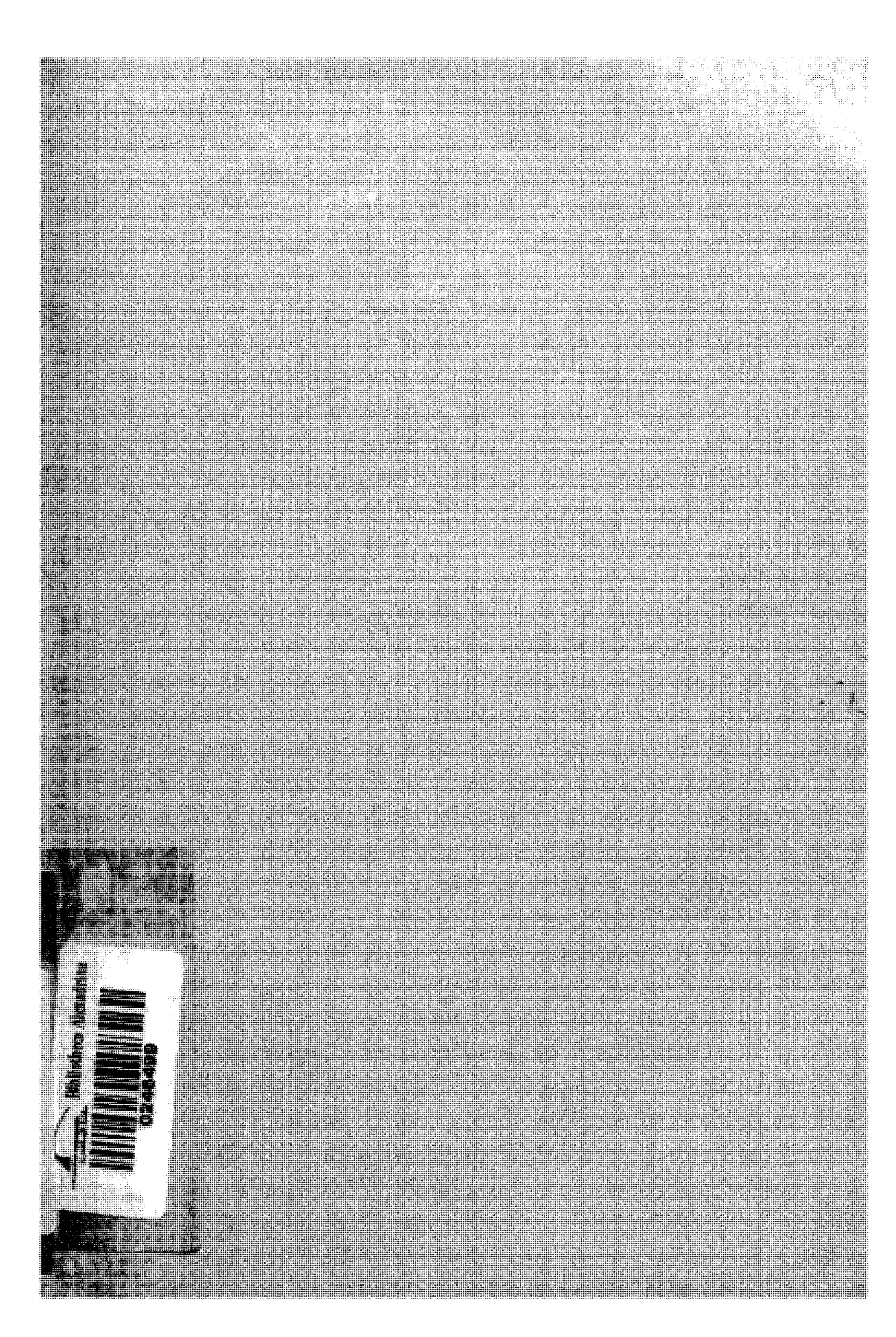
ولكننا لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن هذه الظروف كانت بين أهم العوامل التى تركت طابعاً واضحا فى المجتمع الأثينى منذ أن بدأت أثينا تترك مكانها بين دول المرتبة الثانية لتتزعم بلاد اليونان وبعد أن أفلتت من يدها هذه الزعامة حتى أنهارت نهائيا أمام القوة المقدونية الفتية . لقد كان لأولى هذه العوامل الجغرافية ، وهى المناخ الجاف والتربة المقفرة أثرها فى عدم كفاية المحصول الأثينى لتوفير الخبز الكافى للأثينيين فاتجهوا إلى الشرق حيث الحقول الذهبية على شواطىء البحر الأسود ، وفى اتجاههم هذا اضطروا إلى الاحتكاك بالقوات الأخرى المنافسة لأثينا فى هذا المجال ، فكان احتكاكهم هذا ، مدار الجزء الأكبر من سياستهم الخارجية ، كما قسوا على أنفسهم فى الداخل ، فنظموا شئون القمح فى كثير من الدقة وكثير من الشدة . أما الظرف الجغرافى الثانى الذى أثر فى الحياة الأثينية فتمثل فى الثروة الحجرية التى قفزت بأثينا درجات فى مجال النحت والفن المعمارى والثروة المعدنية فى مناجم الفضة التى ساعدت أثينا على الوقوف على قدميها فى أكثر من مناسبة ، وأخيرا فقد كان لأثينا فى موقعها الجغرافى وتضاريسها وتعاريج سواحلها ماهيأ لها سبيل الظهور كقوة بحرية ثم سبيل الزعامة فى العالم الهلينى .

هوامش

1. Cary, M.; Geogr. Background of Gr. and Rom. History, p, 76.
2. Struck; Zur Landeskunde von Griechenland: Kulturgesch. und Wirtsch., p. 167.
3. Plato; Kritias, 110e. 111 B, C.
4. Lepsius; Geologie von Attika, p. 11. Jardé; Les Céréales dans l'Antiq. Gr., p. 72 & n. 2.
5. Xenophon; Poroi, I, 2, 3. Oecon., XVI, 9.
6. Jardé: op. cit., p. 95. Gomme; Population of Ath., pp. 28 sq.
7. Thuk.; I, 2. Strabo; VIII, 1, 2. Dem.; XLII, 5 sq, 20 sq. Jardé; op. cit., p. 51. Boeckh; Staatshaushaltung der Athener, Bd. I, pp. 571 sq.
8. Herod.; VI, 36—39.
9. Ibid.; V, 97.
10. Thuk.; III, 20.
11. Ibid.; II, 19—23. Aristoph.; Acharn., 180 sq., 228 sq.
12. Isokr.; VIII, 29, 42—3, 125, 134. Aesch.; II, 171. Dem.; XXIV, 171; XIII, 6; XV, 26. Theophr; fr. 65. Diod.; XVI, 7, 3. Corn. Nep.; Timoth. 3.
13. Dem.; XXIII, 10—14, 92, 149—158, 163, 169—173, 181—184. Ps. Dem.; VII, 42-3. I. G. II^2 126, 4—21 Diod.; XVI, 34, 3—4
14. Dem; Phil. I, 17, 34; Phil. III, 26, 56; Ol. III, 8; XX, 63; XXIII, 107^2, 116. Ps Dem.; VII, 10, 27. Diod.; 8, 3—5; 52, 9; 53, 2—3.
15. Dem.; XX, 30 sq. Hicks & Mills; Manual of Gr. Hist. Inscr., 111.
16. Dem.; I, II, III, Phil. I, II, III, IV, X, 37.
17. Isokr.; VIII, 5—6, 12, 16, 22—23.
18. Aristot.; Ath. Pol. XXVI, 4.
19. Plutar.; Solon XXIV.

20. Aristot.; Ath. Pol. LI, 3.
21. Lysias; XXII, 8, 10, 14.
22. Dem; XXXIV, 37; XXXV, 50.
23. Pollux; VIII, 33. Aristoph.; Vesp., 1109.
24. Dem.; XXXIV, 37.
25. Dem.; XXXIV, 39.
26. Lysias; XXII, 8, 10, 14.
27. Dem.; LVI, 7 sq.
28. Herod.; I, 64.
29. Horod.; VII. 144, Aristot.; Ath. Pol., XXII,7. Plut.; Themist. 4.
30. Thuk.; VII, 19,27.
31. Xen.; Poroi, I. 5sq.
32. Weller; Ath. and its Mouments. 29-47; Cary & Haarhoff., Life and Thought of the Gr. and the Rom. pp. 220-5.
33, Richter; Attic Pottery, p. 24. Cloché; La Demcor;. Ath. p. 13, Kübler; Altattische Malerei; pp, 1,7,9, 35 sq.
43. Thuk.; I,5. Homer; Od. III, 72, IX, 252.
35. Herod.; III· 39, 47-8, 60. Halliday, Growth of the City State, p. 398nn. 26, 27, 28.
63. Halliday; op. cit p. 35.
37. Herod.; II, 178-9; VII, 147; IV, 152.
38. Ibid.; V, 79-88; VI, 49-73. Thuk.; I, 105,108.
39. Cary; op. cit., pp. 78-9.
40. Ibid.; p. 77.
41. Dem.; XXII, 17.
42. Aristot.; Ath. Pol., XLII, 8,11-12,
43. Dem.; LI, 1, 4, 6, 18. I.G. II[2] 1629 a, 190 sq.
44. Grundy; Thuc. and the Hist. of his age.




Bibliotheca Alexandrina